الفصل الرابع

الوحي، العلم

في وحدته في غار حراء، ظل محمد ﷺ يبحث عن الحقيقة والمعنى. ثم ظهر له الملك جبريل فجأة وقال له: «اقرأ!» أجاب محمد ﷺ: «ما أنا بقارئ!». فغطّه الملك حتى بلغ منه الجهد ثم قال له ثانية: «اقرأ!» فكرر محمد ﷺ إجابته: «ما أنا بقارئ!» فغطه الملك ثانية حتى بلغ منه الجهد وأعاد الأمر للمرة الثالثة: «اقرأ!» وجاء الرد ذاته: «ما أنا بقارئ!»، فتلا الملك وهو لا يزال ممسكاً به: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[1].

كانت تلك الكلمات الآيات الأولى للقرآن التي أوحي بها للنبي ﷺ بواسطة الملك جبريل، وقد وصف محمد ﷺ، ثم زوجته عائشة ـ رضي الله عنها ـ بعد مدة طويلة، وبعض الصحابة والمحدثين حتى ابن إسحق وابن هشام، هذا الحدث وتلك الأحداث التي تلت بكلمات متماثلة بصفة عامة، رغم وجود بعض الاختلافات بشأن بعض الوقائع (معظمها غير مهم) وتسلسلها التاريخي.

بعد التفوه بتلك الكلمات غاب الملك جبريل عن النظر، مخلفاً محمداً ﷺ بحالة من الاضطراب العميق، كان يشعر بالخوف ولم يكن يدري إن كان قد شاهد رؤيا شيطانية أو أنه كان به مس.

فقرر العودة إلى زوجته، ووصل أخيراً وهو في حالة من الجزع وقال: «زملوني! زملوني!» فغطته خديجة ــ رضي الله عنها ـ بعباءة وسألته عما أصابه، فوصف لها ما حدث وأعرب عن خوفه: «ما هذا الذي حدث لي؟ لقد خشيت على نفسي»[2]. فطمأنته وهمست قائلة: «هون عليك، إن الله لن يخزيك أبداً، إنك لتصل الرحم وتقول الحق وتحمل الكلّ وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»[3].

ورقة بن نوفل

رأت خديجة ــ رضي الله عنها ــ أن تسأل ابن عمها، ورقة بن نوفل النصراني، عن رأيه، فذهبت إليه (من غير الواضح ما إذا كانت ذهبت وحدها أو مع النبي ﷺ) وأخبرته بما حدث لمحمد ﷺ[4]. عرف ورقة الدلائل التي كان ينتظرها فأجاب دون تردد: «قدوس! قدوس! والذي نفس ورقة بيده، إنه الناموس الأكبر صديق أسرار الملك الأعلى، الملك الذي يأتي بالوحي المقدس الذي جاء إلى محمد، وهو الذي نزل على موسى. إن محمداً هوحقاً نبي هذه الأمة»[5].

وبعد فترة، في لقاء مع محمد ﷺ قرب الكعبة أضاف ورقة: «إنهم سيكذبونك ويسيئون معاملتك ويخرجونك ويهاجمونك! وإذا كنت لا أزال على قيد الحياة فيعلم الله أني سوف أنصرك في تحقيق النصر لقضيته!»[6].

هـذا الـكلام أدهش النبي ﷺ فقـال: «أو مخرجيّ هـم؟» وحذره ورقة قائلاً: «نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا أوذي واعتبر عدواً!»[7].

كانـت مهمة النبـي ﷺ قد بدأت للتو، وقد سمح لـه الآن إدراك بعض أسـس الوحـي الأخير فضلاً عن بعض الحقائق التي كانـت موجودة عبر تاريخ النبوات لدى الشعوب.

الإيمان والعلم والتواضع

استرعـت الآيات الأولى التي نزلـت على النبي ﷺ، الذي لم يكن يقرأ ولا يكتـب ـ استرعـت انتباهه مباشرة إلى العلم، ومع أنه لا يعرف القراءة عنـد الاعتماد علـى استعداداتـه الطبيعية، فقـد دعاه الله ليقـرأ «باسم ربـك»، حيث ربط مباشرة بـين الإيمان بالله والعلـم، لأن الآيات اللاحقة تؤكد هذه العلاقـة: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ بين الخالـق والخلق يوجد إيمان يعتمـد على المعرفة الممنوحـة للبشر من قبل الـرب الأكرم ليتيح لهـم الاستجابة لدعوتـه واللجوء إليـه، تنشئ الآيات الأولى تقابـلاً فورياً مع ما سيـورده الوحي لاحقاً عن خلق البشر: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[8]. سـوف يمنح العقل والذكاء واللغـة والكتابة الناس الصفـات اللازمـة لتمكنهم مـن أن يكونـوا خلفـاء الله في الأرض، ومنذ البدايـة، قـرن الوحي القرآني معرفـة الله بالمعرفة والعلـم، مردداً بذلك صدى أصل الخلق ذاته[9].

جاء في عدة أحاديث أن نزول الوحي الثاني يقابل بداية سور القلم،تلك الآيـات أكـدت المصـدر الإلهـي لهذا الإلمـام فضـلاً عن ضـرورة المعرفة

والعلم،كمـا أنها ذكرت أخـلاق الرسول ﷺ المتفردة التـي شهدت عليها السنوات الأربعون الأولى من حياته.

﴿ نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦ ﴾[10].

نـون هي إحدى الأحرف الهجائية في اللغـة العربية، ويوجد بالطريقة نفسها حروف أخرى تبدأ بها بعض سور القرآن، في حين أنه ما من مفسر ـ ولا حتى النبي ذاته ـ قادر على أن يحدد بالضبط ما تعنيه هذه الحروف أو ما يرمز إليه وجودها في بداية بعض السور، وهكذا في اللحظة ذاتها التي يقسـم فيها الخالق «بالقلم» ويؤكد ضرورة العلم الذي أتيح للبشر، يفتتح الله الآيات بحرف النون الذي تكتنفه الأسرار، معبراً بذلك عن محدودية المعرفة البشرية. إن كرامة البشرية، التي منحتها لها المعرفة، لا يمكن أن تخلـو من تواضع العقل الذي يدرك حدوده ويدرك بذلك ضرورة الإيمان، إن قبـول عدم فهم الأسـرار التي ينطوي عليها وجود حرف النون يقتضي الإيمان، إن فهم وقبول النصوص التي لا تكتنفها الأسرار للآيات التي تلي فإن ذلك يقتضي استخدام عقل نشط لكنه بالضرورة ـ بل بالطبع ـ عقل له حدود.

الإيمان والأخلاق والاضطهاد

تضيـف سورة القلم إلى التعليـم الأساسي للإسـلام -الذي مفاده أن العلـم لا يوجد إلا بـإدراك البشر لمحدوديته- بُعداً آخر عندما تتحدث عن

«الخلق العظيم» للنبي ﷺ. إن هذه السورة التي تذكرنا بما عرفناه سابقاً عن سلوك النبي ﷺ النبيل بشكل استثنائي منذ ولادته تقيم صلة محددة بين العلم والإيمان والعمل، ففي ضوء الإيمان، يجب أن يكون العلم مبنياً على أساس كرامة الفرد الأخلاقية ومعتمداً عليها؛ وفي الواقع، فإن نبل سلوك النبي ﷺ هو الذي يؤكد له -استنتاجياً- بأنه ليس به مس من الشيطان وأنه على الحق وأن أجره سيكون لا نهاية له، يجب أن يكون للإيمان بالله وللعلم -من منطلق التعاليم الإلهية، كنتيجة فورية- سلوكاً وطريقة في التصرف، تحترم ما هو أخلاقي وتعزز ما هو خير.

تلك الآيات تنطوي على درس آخر، تنبأ به ورقة بن نوفل والراهب بحيرى قبله: سوف يتعرض النبي ﷺ للإهانات والشدائد والحقد بل وحتى النفي من جانب أهله، وقد تم تحذير النبي ﷺ بأنه سوف يُكذَّب لا محالة، غير أنه في الوقت الراهن، بعد أول الوحي الذي نزل عليه، كان عليه مواجهة شكوكه هو: لقد طمأنته زوجته وبعدها جاءه تأكيد ورقة بن نوفل، لكنه لم يتلق أي شيء من الملك جبريل لطمأنته طمأنة تامة، في بعض الأحيان، وفي أثناء سير النبي ﷺ، كان يرى صورة جبريل تملأ الأفق، فإذا أشاح بوجهه عنها ظل جبريل يطالعه.

لا توجد معطيات دقيقة عن عدد المرات التي جاء فيها الوحي للنبي خلال هذه المرحلة الأولى، لكن عائشة ـ رضي الله عنها ـ تروي بأن النبي ﷺ قال في أحد الأيام إنه سمع صوتاً وفجأة «ظهر لي الملك الذي جاء في غار حراء، وهو جالس بين السماء والأرض، فانتابني الخوف وكما حدث في أول الوحي فهرعت إلى البيت وقلت: «دثروني! دثروني!» ففعلوا[11].

حدث ذلك وعندها نزلت هذه الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾[12].

في كل نزول للوحي في المرحلة الأولى، كان الله يصف نفسه لرسوله بأنه «ربه»، الذي اصطفاه وأدّبه ودعاه إلى حمل التنزيل الأخير الصادر عن الواحد الأحد، فلم يكن عبثاً أن محمداً ﷺ قد تعرض لليتم والفقر وأنه انخرط في حقبة من التأمل، رغم أنه في تلك اللحظة كان القلق والجزع يغشيان إدراكه بأنه تم اصطفاؤه وإسناد الرسالة إليه.

الصمت والشك

ثم ازداد الوضع سوءاً؛ لأن الوحي توقف خلال الأشهر التالية، هذه الفترة التي استمرت بين ستة شهور وسنتين ونصف السنة، حسب الحديث المروي، أثارت في نفس النبي ﷺ شكاً وألماً كبيرين، فقد ظن أنه لم يعد أهلاً لتلقي الوحي، وأن ربه قلاه، أو أن ما حدث له هو مجرد سحر، وقد روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ شدة ألمه:

> انقطع الوحي مدة حتى حزن النبي ﷺ حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل كي يلقي منه نفسه، تبدى له جبريل فقال: «يا محمدّ! إنك رسول الله حقاً»، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه[13].

كان لظهور جبريل والدلالات المحيطة بالنبي ﷺ أبلغ الأثر في مساعدته على مقاومة مشاعر الشك والعزلة. لقد كان في الواقع يتعرض لما تعرض

لـه إبراهيم عليه السلام: ففي محنة هذا الصمت، أخـذ يشك بنفسه، وقدراته وقوته، لكن الله كان دائماً يضع في طريقه دلالات ورؤى حالت دونه والشك بالله، كان اختبار انقطاع الوحي استهلالاً حدد سير الرسول ﷺ في مسعاه الروحـي، فقد أنباه الوحي عن ضـرورة التواضع، لكن مدة انقطاع الوحي كان يعلمـه إياه الآن بشكل عملي. لقد كشف الله له عن وجوده وخلال تلك الأسابيـع الطويلـة التي خلـت من كلمتـه، كان يعزز الحاجـة إليه في قلب رسولـه، وأخيراً أوحى الله إليه ثانية، مستدعياً ضحى النهار وسجى الليل مـن أجل حقيقتهمـا المادية، وهي دلالـة على قدرة الخالـق، بقدر ما هما مـن أجـل رمزيتهما، التي تعبر عن هشاشة الحيـاة والقلب بين نور الوحي الصاعد وفراغ الصمت المظلم:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾[14]

كانـت تلك أخبـاراً سارة، ولم يعد الوحي يتوقـف ثانية طيلة ما يزيد عن عشرين سنة.

خديجة (رضي الله عنها)

مـن الأهميـة بمكان التأكيد هنا علـى الدور الذي قامت بـه خديجة ـ رضـي الله عنهـا ـ طيلة تلـك السنوات الحافلة بالأحـداث، بعضها خارق للعـادة، وأخرى شديدة الإيلام. كانت هـي التي لاحظت أولاً، ثم اختارت، محمـداً ﷺ لصدقـه وإنصافه ونبل أخلاقه، وبمـا أن الكثيرين من مكة كانـوا يخطبون ودّها بسبب ثروتهـا، فقد كان باستطاعتهـا تقدير موقف

التعفـف والتحفظ من ذلك الشاب الـذي كان مع ذلك مقداماً وبارعاً إلى درجـة كبيرة. وخلافاً لمـا هو متعارف عليه، فقـد كان لديها من الشجاعة مـا جعلها تطرح عليـه مشروع الزواج مـن خلال صديقتهـا نفيسة، وكان لزواجهما أن يجلب لهما نصيبهما من السعادة والحزن والأسى: فقد فقدا ابنيهمـا، القاسم وعبد الله، في مرحلـة الطفولة، ولم تبق على قيد الحياة سـوى بناتهمـا الأربـع[15]. كان قدر هـذه الأسرة صعباً بما فيـه الكفاية، لكـن لـدى العرب، كانـت ولادة البنت تُعد عاراً، وجـاء في الأثر أن محمداً ﷺ كان، علـى العكس من ذلك، يحيط بناته هـو وزوجته بالحب الشديد والرعاية المتواصلة، التي لم يترددا أبداً في التعبير عنها في العلن.

عندمـا نزل الوحي على محمد ﷺ للمـرة الأولى وهو في سن الأربعين، التجـأ إلى زوجتـه على الفـور، وكانت أول مـن وقف إلى جانبـه وهدأ من روعـه، وكانت زوجته، خلال السنوات السابقة كلهـا، تشاهد رجلاً تميزت شخصيتـه بالنبل. وعندما عاد إليها من غار حراء، وقد انتابه الاضطراب واجتاحـه الشـك بشأن ما كان عليـه وما كان يحدث لـه، أحاطته بمحبتها وذكرتـه بصفاتـه الحميدة وأعادت لـه ثقته بنفسه، كانـت أحداث الوحي الأولى إنعامـاً خارقـاً واختباراً مريعـاً لرجل لم يعد يعـرف إن كان به مس أو إن كان فريسـة لحمـى هذيان شيطاني. كان وحيـداً ومشوشاً، فلجأ إلى زوجتـه، فوقف الاثنان معاً يواجهان الاختبار، ويحاولان فهم معناه، ثم بعد انتهاء فترة انقطاع الوحي، استجابا لدعوة الله وسارا على طريق الانخراط الروحي، في هذا الصدد، كانت خديجة ـ رضي الله عنها ـ دليلاً على وجود الله في قلب اختبار محمد ﷺ. وكانت من حيث تجربة محمد ﷺ الروحية

مـا كانت عليه هاجر من حيث تجربة إبراهيم عليه السلام. كانت كلتاهما والابن العلامات التي أرسلها الواحـد الأحد لإظهار وجوده ودعمه في اختبارهما، بحيـث لا يشكان به أبداً، كانت خديجة ـــ رضي الله عنها ـ أول من اعتنق الإسـلام، وظلت طيلة السنوات العشر من بعثة محمد ﷺ تقف إلى جانبه، رفيقة مخلصة لا تخذله أبداً، لقد كان دور المرأة في حياة النبي ﷺ كبيراً واسع النطاق، وقد ظلت خديجة ـ رضي الله عنها ـ طيلة خمس وعشرين سنـة، زوجته الوحيدة، كان وجودها وحده حماية للنبي ﷺ لكنها تعرضت معـه إلى الرفض من أهله والى الاضطهـاد والعزلة [16]. كان حبه لها بالغ الشأن، وكان ذلك واضحاً إلى حد أنه بعد وفاة خديجة ـ رضي الله عنها ـ بعـدة سنوات، قالـت عائشة ـ رضـي الله عنها ـ التـي تزوجت النبي ﷺ لاحقاً ـ كانت خديجة ـ رضي الله عنها ـ المرأة الوحيدة على الإطلاق التي كانـت تشعـر بالغيرة منها، لقد استقبلت خديجة ـــ رضي الله عنها ـ النبأ الطيب لاختيـار الله له، كانت امرأة مستقلة، وقورة وتحظى بالاحترام، ثم هـي زوجة قوية ونبيهة وصادقـة وواثقة من نفسها، كانـت تقية، مخلصة، ذات تصميم وتتحلى بالصـبر، وهكذا فإن محمداً ﷺ آخر أنبياء الواحد الأحـد، لم يكن وحيداً، وكان من أوضح علامات فضل الله عليه ومحبته له وجود امرأة في حياته، زوجته.

وحي وحقائق وكتاب

لقد تجلى الله من خلال الوحي، وقد وجهت مناسبات الوحي وعي النبي ﷺ إلى وجـود الله الأسمى وتربيته، إذ إنه كان دائماً يخاطب بأنه «ربك».

وكان جبريل قد نقل الأسس الأولى للرسالة ولمعرفة الله ـ جوهر الإيمان ـ وعبر في الوقت نفسه عن مركزية العلم (القراءة والكتابة) المقترنة بالسلوك الفاضل، وكان الإعلان عن البشائر الطيبة يقترن بتحذير بشأن معارضة الآخرين القادمة لمحمد ﷺ، ذلك لأنه لم يأت رجل حق إلى الأرض إلا عودي وكُذِّب وأثيرت حوله الأكاذيب، حتى من بعض أقاربه، الذين كانوا يحبونه، أصبحوا يكرهونه إلى درجة أنهم كانوا يريدون قتله.

لقد ظهر جبريل له مرات متعددة، وقد روى النبي ﷺ لاحقاً أن الملك كان يظهر له في بعض الأحيان على هيئته الملائكية وفي أحيان أخرى على شكل بشر، وفي أوقات أخرى، كان محمد ﷺ يسمع صوتاً مثل قرع الأجراس ويأتيه الوحي بشكل مفاجئ ويقتضي منه تركيزاً بالغاً لدرجة الاختناق، كان هذا النمط الأخير مؤلماً جداً رغم أنه كان في نهاية الوحي يستطيع إعادة محتوى الوحي الذي أنزل عليه كلمة كلمة[17]. وقد كان جبريل يصحبه طيلة عشرين سنة ويكشف له، بشكل غير مطرد ووفق مقتضيات الموقف، الآيات والسور التي كان من شأنها أن تكون القرآن في خاتمة المطاف، لم يتم ترتيب الوحي وفق التسلسل التاريخي في المصحف الذي كان يتخذ شكله الراهن، بل تم ترتيبها وفق ما كان جبريل يوجه به النبي ﷺ في كل مرة وكان النبي ﷺ يستجيب إلى توجيهه بشكل دقيق. وكان النبي ﷺ، كل سنة، في شهر رمضان، يتلو أمام جبريل كل ما كان قد أنزل عليه من قرآن حتى ذلك الوقت، وفق الترتيب الذي حدده الملك، وبهذه الطريقة نُفِّذ تحقيق منهجي لمحتوى الكتاب وشكله والذي كان يتكون تدريجاً عبر خمس وعشرين سنة.